الفصل السابع
الفن والمعنى المؤجل

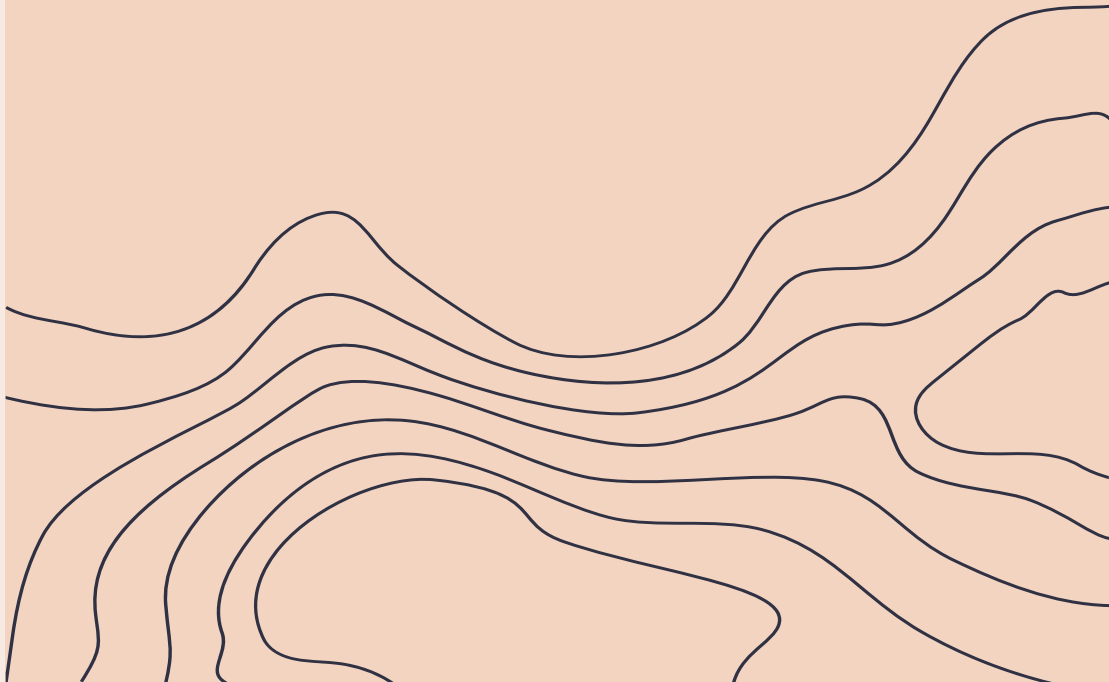

علاقة الفنون التاريخية بالدين، وطبيعة التوترات الواقعة بين دنيوية الفن وأخروية الدين

منذ الحقبة اليونانية القديمة حتى القـــرن الثامن عشر لم تطرح الفنون إلا باعتبارها وسيلة أو طريقة لتأكيـــد القيم العقائدية والأخـــلاقية، ثم جاءت المسيحية في حقبتها الوسيطة فاستثمرت الأطر الأخـــلاقيـة الفلسفية القديمة، ورأت أن الفنـــون -كالموسيقى- يمكـــن استعمالها وسيلة لإعلاء كلمة الرب، وطريقة فعالة لإيقاظ الشعور الديني.

إلا أن مادية النشـــاط والمنتج الفني ودنيويته تعكّران صفـــو روحانية الاعتقاد وأخروية التدين، وهذا التناقض الجزئي بين الفنون والدين أثار كثيرًا من الجدالات والصراعات في التاريخ الكنسي، ومن أبرز وقائع ذلك أن الكنائس البيزنطية -في القرن الثامن والتاسع الميلادي- رفضت شيوع الصور في الكنائس ورأت فيها عبـــــادة للأصنام، كما أن الموسيـــقى الكنسية أثارت قلـــق بعض كبار المسيحيين وارتباكـــــهم لأنهم يشعرون بدنيوية الألحان وحسّيتها المتناقضة مع الورع.

جوهر الانفعال الفني ومعناه

تتشابك العـــلاقة بين الفن والدين بطرق مختلفة، فالدين يتعلق بفعـــل الإنسان وكينونته في علاقته مـــع اللامرئي، بينما الفـــن يتعلق بصنع المرئي ونشاطه المنظم، ولكـــن تبعًا للامرئي، ومن هذا المنظور يتداخل الفـــن والدين في كونهما تكريسًا للانتباه لما هو مستتر ويمكن أن يظهر.

فهناك مســـاحة ما غيبية تقـــع داخـل هذين المجالين، **ومـــن هنا حـارت كثير من التفسيرات النقدية التي حـــاولت الكشف عن جوهـــر الفعل الفني، ودلالة الانفعال الذي يقع لمتلقيه ومعناه،** ذلك الشعـــور الوجداني الغامض والعميق الذي يحسّه الإنسان حين يقف قبالة الفنـــون المرئية كالصـــور والرسوم المتقنة والتماثيل، والمسموعة لاسيما الموسيقى المحضة.

والذي يهم مـــن وراء كل التفسيرات بيان طبيعة الانفعال الفني، وتأمـــل آثاره ودلالاته، التي تفسر جوانب كثيـــرة من الاهتمام الحداثي بالفن فهي كالتمهيد لوصف نمـط التحول -أو العلمنة- الذي انقلب من جـــرائه الفـــن من كونه وسيلة دينية -بقطع النظر عن صوابها من عدمه-، إلى غاية تامة في نفسه، وبديـــلًا عن الدين، بل ديانة مستقلة بذاتها؛ تؤسس للحياة معنى أصيلًا.

استقلالية الفن وتحوله إلى غاية ومنبع رئيسي للمعنى

أضحى الفـن يُنظر إليه في الحداثة بوصفه تعبيرًا عن الأصالة، وإظهارًا للطبيعة الداخلية للذات، وهذا التحــول أفضى -مع أسباب أخرى- إلى نشوء مظاهر تقديس الفن؛ لأن مثال «الأصالة الفردانية» لم يعـد ممكنًا إلا في الممارسة الفنية فقط، وبذلك تحـــول الخلق الفني إلى نموذج لتعريف الذات، وبات الفنان نموذجًا لبقية البشر، ومنذ عام ١٨٠٠م انقلـب الفنان إلى بطـل، وإلى نبي، وإلى «خالق» للقيم الثقافية، وتبعًا لذلك تضخمت قيمة الفعل الفني نفسه.

ومع تطور البحث النظري في علم الجمال وإعلان بعض النقاد استقلاليته الموضوعية؛ بات المجال مفتوحًا أمام ظهور فكرة استقلالية الفن بذاته، ورفض أن تكون الفنون وسيلة إلى غيرها من الغايات الدينية أو الأخلاقية، وشاع الاعتقاد بغائية الفن؛ واشتهر شعار «الفن للفن»، وقُدمت الفنون والجماليات بوصفها بديلًا أخلاقيًا وقيميًا وسياسيًا عن قيم ما قبل الحداثة.

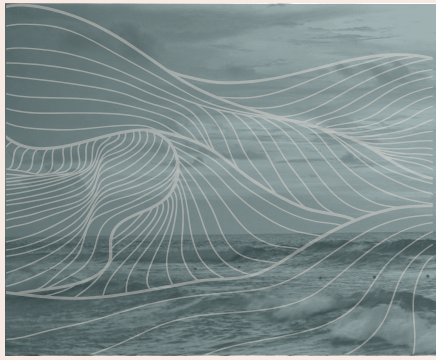

أهم الدوافع الحداثية المؤثرة في النظرة التبجيلية إلى الفن

عبّر العديد من الفنانين والأدباء والباحثين عن دوافع الفكر الحداثي في موقفه من الفن، ومن أبرزها:

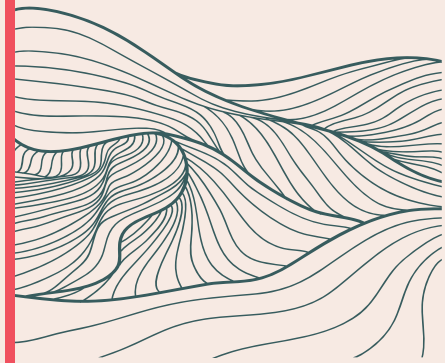

أولًا:

مجمـل المواقف الحداثية تضع الفن في مقام يوازي الدين، إما باعتبـــار أن الفن هو الوعاء الحافظ للدين، والمعّبر الأسمى عنه، فالفن الحـــديث حرر المعتقدات الأسطـورية والدينية عبر تحويلها إلى حالات تخصّ التجربة الجمالية، أو باعتبار أن الفن ديـــانة بذاتها، فهو النشـاط الميتافيزيقي الأعلى للحياة، ومـن ثم اكتسـبت الأعمال الفنية قدسية ذات طابع ديني.

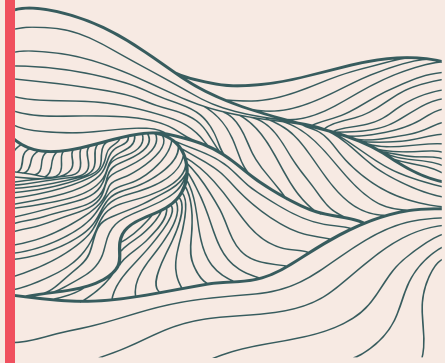

ثانيًا:

يضفي الفن و«التجربة الجمالية» شيئًا من المنطق والنظام على فوضى الذات والعالم، أي أنه يمنح الوجود نوعًا من المعنى، وينظر إليه كوسيلة لاستعادة الوحدة المفقودة؛ لأن الدافع المُلِح في كل إنسان هو البحث عن النظام والتناسق وراء الحجب والتغيرات في العالم.

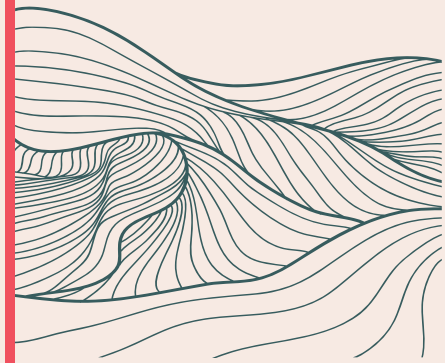

ثالثًا:

تنبع ضرورة الفن من كونه يعوّض الفرد عن قسوة الكبت العقلاني، وهيمنة العقل الأداتي والنفعي المتفشي في الحياة الحديثة.

رابعًا:

تكاثر تعاسات الحياة وآلامها يجعل من الفن نافذة رحبة للخروج المؤقت من العالم، بل خيارًا ضروريًا لمن لا يملك مسكنات ثقافية أو مهدئات إيمانية يحتمي بها من شرور الوجود.

خامسًا:

الفنون تحظى بميزة إضافية بانسجامها مع التوجّه الروحاني المعلمن، الذي يسعـى إلى استنباط روحانيات بلا دين، وهو توجه متصاعد ينظر إلى الروحـانية بوصفها تجربة وجود إلهي، شخصية وعميقة وحدسية، وإذا لم يمكـن الحصول على هـذه «التجربة» في إطار الأديان المعروفة، فإنه يمكن العثور عليها في الفن والموسيقى.